حب اللغة بين ثلاث قصائد

بقلم: د . شهاب غانم
دبي

اللغة هي المادة التي يشكل منها الشاعر قصيدته وإذا كان النحات يشكل تمثاله من الرخام أو الحجارة، والرسام يشكل لوحته بالألوان، فإن ارتباط الشاعر باللغة ارتباطا ربما كان أكثر خصوصية نظرا لأنه يبدأ في تعلم الكلمات منذ طفولته الأولى على يدي أمه وأبيه. فالكلمات ترتبط بالهوية، والعلاقة بين الإنسان ولغته علاقة نفسية وعاطفية . ونحن نجد أن الأغلبية الساحقة من الشعراء يكتبون قصائدهم بلغاتهم الأم حتى ولو أجادوا لغات أخرى . ومن خرج عن هذه القاعدة فنادر، ويكون ذلك بسبب ظروف خاصة والنادر لا حكم له .

وبين أيدينا ثلاث قصائد يعبر فيها شعراؤها الثلاثة عن عشق للغة تكاد تصل إلى درجة التقديس . اثنتان من القصائد لشاعرين عربيين والثالثة لشاعر إنجليزي.

ونبدأ بقصيدة قصيرة معروفة لدى كثير منا لأنها كانت مقررة في كتب المطالعة في المدارس في مختلف البلدان العربية عادة في المراحل المتوسطة أو الإعدادية وهي بعنوان « لغتنا الجميلة» للشاعر اللبناني المهجري حليم دموس (١٨٨٨ - ١٩٥٧) وهي كما يلي :

لا تلمني في هواها
أنا لا أهوى سواها
لست وحدي أفتديها
كلنا اليوم فداها
نزلت في كل نفس
وتمشت في دماها
فبها الأم تغنت
وبها الوالد فاها
وبها الفن تجلى
وبها العلم تباهى
كلما مر زمان
زادها مجدا وجاها
لغة الأجداد هذي
رفع الله لواها
فأعيدوا يا بنيها
نهضة تحيي رجاها
لم يمت شعب تفانى
في هواها واصطفاها

والقصيدة مباشرة وتقريرية، ولذلك صلحت لأولاد المدارس في المراحل الأولية ولكنها رغم بساطتها فهي أقرب إلى السهل الممتنع، والشاعر يشير إلى أنها لغة الأم والأب، وأنها اللغة التي يعبر بها الفن والعلم، ويقول إلى أنه كلما مر زمان زادها مجدا وجاها .. وهذا في الواقع ممكن بسبب التراكم الأدبي، فالمتنبي وأبو تمام والبحتري والمعري جاؤوا بعد عدة قرون من شعراء المعلقات، وأضافوا مجدا جديدا للعربية. وجاء شوقي وحافظ والجواهري ونزار قباني وإيليا أبو ماضي بعد ألف عام من المتنبي وأمراء الشعر العباسي، وأضافوا مجدا جديدا للعربية.

***

القصيدة الثانية قصيدة شهيرة لحافظ إبراهيم شاعر النيل (١٨٧٠ - ١٩٣٢) وهي أيضا من القصائد التي كانت مقررة في المدارس في أيام صباي وهي بعنوان « اللغة العربية تنعي حظها » . والشاعر هنا يستعمل أسلوبا أقل مباشرة فهو يجعل اللغة تتحدث وتقول :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي
ونديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني
عقمت فلم أجزع لقول عداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي
رجالا وأكفاء وأدت بناتي
وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

إنها بداية قوية تكاد تلخص ما جاء بعد ذلك في هذه القصيدة الطويلة فهو يكيل اللوم لأبناء اللغة الذين هم ليسوا أكفاء لها، سماعون لاعدائها. وحجته الدامغة أن هذه اللغة قد اختارها الله لكتابه المعجز إلى أبد الآبدين فكيف تضيق عن استيعاب واستحداث كلمات للمخترعات العلمية وهي لغة

الاشتقاق الغنية بالمفردات والبحر الزاخر باللالئ .
ثم يقول:

أرى لرجال الغرب عزا ومنعا
وكم عز أقوام بعز لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا
فياليتكم تأتون بالكلمات
أيطربكم من جانب الغرب ناعب
ينادي بوادي في ربيع حياتي؟

لقد كتب هذه القصيدة في عصر النهضة تحت ظل الاستعمار والغزو الثقافي الذي كان يبث سمومه محاولا أن يجعل العرب يتشككون في دينهم ولغتهم ليسهل عليه احتواؤهم تماما كما يفعل الغرب اليوم بعولمته التي تحاول أن تصل إلى ثقافتنا ومناهجنا التعليمية مع الاعتراف بما في مناهجنا من عيوب وتقصير علينا نحن إصلاحها بما يخدم نهضتنا وليس ما يجعلنا ذيلا للغرب والصهيونية . يقول حافظ أيضا متذكرا الأجداد وإنجازاتهم:

سقى الله في بطن الجزيرة أعظما
يعز عليها أن تلين قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظته
لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق
حياء بتلك الأعظم النخرات

ويعود الشاعر إلى الحاضر المؤلم للغة:

أرى كل يوم بالجرائد مزلقا
من القبر يدنيني بغير أناة
وأسمع للكتاب في مصر ضجة
فأعلم أن الصائحين نعاتي
أيهجرني قومي عفا الله عنهم
إلى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى
لعاب الأفاعي في مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة
مشكلة الألوان مختلفات

فماذا كان حافظ إبراهيم سيقول في قصيدته لو كان يشاهد القنوات الفضائية العربية في زمننا؟! ودعني أضرب مثلا أو مثلين من عجائب ما نسمع .

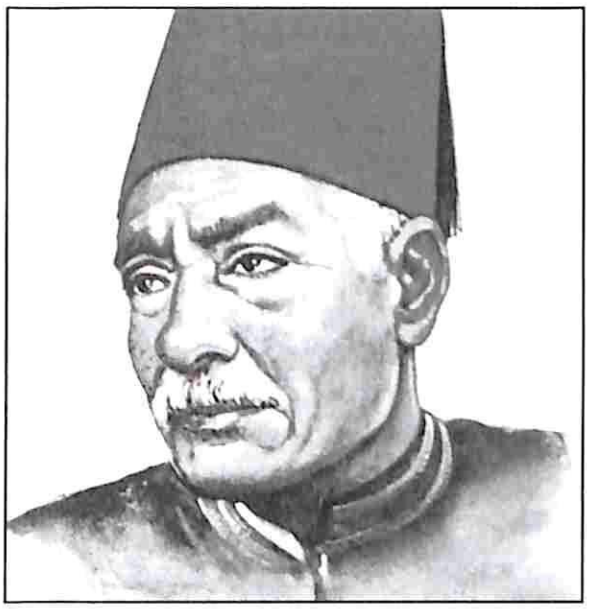

حافظ إبراهيم

ففي إحدى المسابقات الثقافية بين فريق من الشبان وفريق من الشابات سأل مقدم البرنامج الفريقين عما يعلمان عن غزوة بدر . فريق الشبان اعتذر بعد التشاور فهو لم يسمع بغزوة بدر . أما فريق الشابات فقد كان منتشيا بمعرفة الإجابة وبعد التشاور قالت ممثلة الفريق شارحة غزوة بدر : (حصل «اكسدون» (أي صدام) بين «جروب» (أي فريق) المسلمين و «جروب» الكفار و «مرسي» (أي شكرا) لـ ألله جروب المسلمين هو اللي ربح).

وفي برنامج آخر على قناة مختلفة كان الجواب في شرح غزوة الخندق كما يلي : (لما كان فريق الكفار بيهجم على المدينة، محمد جمع أصحابه وقال لهم شو بدنا نعمل ؟ فقال سلمان الفارسي بدنا نعمل «تونيل» (أي نفق) حول المدينة فرد عليه النبي «أوكي» (أي موافق) «جو أهيد » (أي افعلوا ذلك) .

ربما لم تكن اللغة كثوب ضم سبعين رقعة في زمن حافظ إبراهيم ولكنه كأنما استشرف المستقبل القريب. وحافظ يختم قصيدته بدعوة وإنذار:

إلى معشر الكتاب والجمع حافل
بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فإما حياة تبعث الميت في البلى
وتنبت في تلك الرموس رفاتي

وإمـــا ممات لا قـــيـــامـــة بعـــده
ممات لعـــمـــري لم يقس بممـــات

***

أما القصيدة الثالثة التي بين يدينا فهي بعنوان «كلمات» للشاعر الإنجليزي إدوارد توماس (١٨٧٨ - ١٩١٧) والشاعر يخاطب اللغة الإنجليزية كما يخاطب الشعراء معشوقة يبثونها غرامهم ويطلبون منها التعطف عليهم ومنحهم بعض الوصال . والشاعر يطلب من اللغة أن تمنحه بعض الرضى وتسمح لكلماتها أن تختاره وترقص معه لينظم منها قصيدة . وهذه الطريقة في التعبير عن حب اللغة تختلف كثيرا عن المباشرة والتقريرية التي رأيناها في قصيدتي دموس وحافظ إبراهيم . وفيما يلي نورد ترجمة كاملة للقصيدة:

من بيننا جميعا
نحن الذين نصوغ القوافي
هل ستختارينني أحيانا
أيتها الكلمات الانجليزية؟
تختارينني أنا
كما تختار الرياح شرخا في حائط
أو أنبوبا تجري فيه الماء
لتصفر من خلالهما
معبرة عن أفراحها أو أتراحها

***

إنني أعرفك:
أنت خفيفة كالأحلام،
صلبة كالبلوط،
نفيسة كالإبريز،
كالخشخاش والذرة
أو معطف قديم،
عذبة في مسامعنا .. مثل طيورنا،
عذبة كالورود الإنجليزية
في حرارة منتصف الصيف،
غريبة كأشباح الموتى
وأولئك الذين لم يولدوا بعد:
غريبة، وعذبة .. بالتساوي.

***

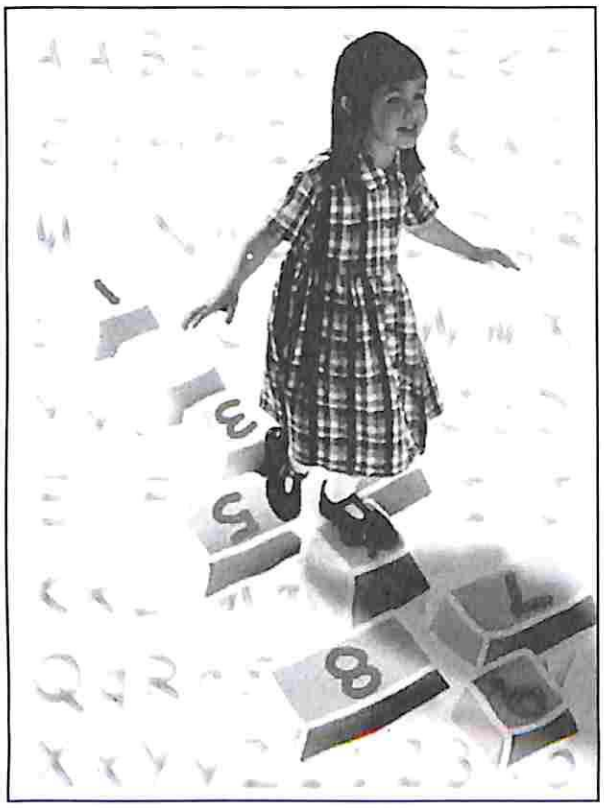

ومألوفة للعين
مثل أحب الوجوه التي يعرفها المرء
ومثل البيوت الضائعة
ولكن أقدم بكثير
من أقدم أشجار الطقوس الصنوبرية -
في قدم تلالنا -
ملبوسة من جديد
المرة تلو المرة:
شابة مثل جداولنا
بعد هطول الأمطار:
وعزيزة كالأرض التي تثبتين أننا نعشقها.
واسمحي لي أحيانا أن أرقص
معك،
أو أتسلق
أو أقف بالصدفة
في نشوة
متسمرا وحرا
في قصيدة ..
كما يفعل الشعراء.. ■